

الفصل الثاني:

سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معاشرته زوجاته

كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المثل الكامل والأسوة الحسنة للرجال في حسن معاشرته أزواجه بالمعروف والقسمة بينهم بالعدل في كل من المبيت والنفقة واللفظ والتكريم ، وفي احتمال غضبهن وغيرتهن وتنازعهن بالأناة والرفق والموعظة الحسنة ، وكان يزورهن صباحا للوعظ والتعليم ، ومساء للمجاملة والمؤانسة ، وكن يجتمعن معه في بيت كل منهن وكان يخدم في بيته ويقضي حوائجه بيده .

قالت السيدة أم المؤمنين عائشة:

"ما ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده امرأة له ولا خادما قط" .

رواه ابن ماجه " ١٩٨٤ " وصححه الألباني .

وسئلت: (ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصنع في أهله ؟)

قالت: (كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة)

"أخرجه البخاري ٦٠٣٩" .

ولها رضي الله تعالى عنها أحاديث أخرى مفصلة في خدمته في بيوته وقيامه بحاجه نفسه وفي وصفها له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

"كان ألين الناس وأكرم الناس وكان رجلا من رجالكم إلا أنه كان بسام" .

رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى .

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد السفر ضرب القرعة بينهم . إذ لا يمكن

السفر بهن كلهن وترجيح إحداهن يسخط سائرهن وإن كان فيها من المرجحات ما يقتضي الترجيح إذ لا يتساوى النساء في استعدادهن للسفر ومشتته ...

ولكنه لما حجَّ أخذهن كلهن معه ، ولما مرض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرضه الأخير شق عليه أن يتنقل بين بيوتهن كل يوم . كما كان يفعل حال صحته فكان يسأل: أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟

فأذن له أزواجه كلهن ، أن يكون حيث شاء فاختر بنت عائشة وفيه توفي .

أخرجه البخاري - ٥٢١٧ - عن أم المؤمنين عائشة .

وقد كان للسيدة عائشة بنت الصديق رضي الله تعالى عنهما من قلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم يكن لأحد من نسائه بعد خديجة رضي الله تعالى عنها فكانت الحبيبة بنت الحبيب .

وكان هذا الحب الطبيعي الذي تعددت أسبابه أعظم دليل على عدله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أزواجه .

فهو لم يكن يفضلها على أقلهن مزايا في الخلق والذكاء والنسب بشيء من النفقة أو المبيت أو حسن المعاشرة .

ولذلك كان يقول في قسمه بينهما بالعدل: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» . "رواه أبو داود ٢٦٧" .

وقد تتبين الأسوة الحسنة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل مع أزواجه من خلال التجارب المتنوعة التي أراد المولى عز وجل أن يمر رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها مع أزواجه لتكون دروسا بليغة للإنسانية كلها وقادتها عبر العصور

والأجيال ومن هذه التجارب:

أولاً: صبره على غيرة نسائه وتظاهرهن عليه:

لما كان من طباع البشر أن العدل بينهم يغريهم بالمطالبة بأكثر من حقوقهم ، والظلم يسكتهم على ما دونها ولا سيما النساء ، حتى ولو كن فضليات النساء في العالم ، ورأى نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يفضل أحداهن على غيرها بشيء ما إلا أن الناس يتحرون بهداياهم له يوم عائشة ، فرأت زوجات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن في هذا هضمًا لحقوقهن وكرامتهن .

ورغم أن هذا الهضم من وجهة نظرهن ليس من فعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل كان يناههن من تلك الهدايا كلهن بالتساوي إلا أنه كن يطالبنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنصافهن وأغلظن في المطالبة والحفن حتى أسكتهن فيما بعد بما يكرهن .

قالت السيدة عائشة:

إن نساء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كن حزينين:

فحزب فيه: عائشة وحفصة وصفية وسودة .

والحزب الآخر: أم سلمة وسائر نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة فإذا كانت عند أحدهم هديه يريد يهديها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخرها حتى إذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت عائشة فكلم حزب أم سلمة أم سلمة فقلن لها:

كلمي رسول الله ﷺ يكلم الناس فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ فليهدى لها حيث كان من بيوت نسائه".

فكلمته أم سلمة بما قلن ، فلم يقل لها شيئا .

فسألنها ، فقالت: " ما قال لي شيئا " .

فقلن لها: " فكلمته حتى دار إليها أيضا فلم يقل لها شيئا .

فسألنها فقالت: ما قال لي شيئا .

فقلن لها: كلميه حتى يكلمك فدار إليها فكلمته " .

فقال لها: (لا تؤذيني في عائشة فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة) .

قالت: فقلت أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله .

فأرسلن زينب بنت جحش فأتته فأغلظت وقالت: أن نساءك يشدنك العدل في بنت أبي قحافة ، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبتها حتى أن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تكلم؟ فتكلمت عائشة ترد علي زينب حتى أسكتها قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة وقال: إنها بنت أبي بكر . " أخرجه البخاري ٢٥١٨ .

يعني أنها مثل أبيها في الذكاء والعقل والحجة وفي ذلك قالت السيدة عائشة: " فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش وهي التي كانت تسامني منهن في المنزل عند النبي ﷺ ولم أر قط امرأة خيرا في الدين من زينب وأتقى الله وأصدق حديثا وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي تصدق به وتتقرب إلى الله تعالى ، ما عدا سورة من حدة فيها كانت تسرع منها الفيتة أي الرجوع إلى الحلم

الخ" أخرجه مسلم (٢٤٤٢/٨٣) .

وللسيدة عائشة مع السيدة زينب وقعة أخرى فقد أخرج مسلم (٢٦/١٤٦٢) من حديث أنس رضي الله تعالى عنه قال:

كان النبي ﷺ له تسع نسوة فكان إذا قسم بينهم لا ينتهي إلى المرأة الأولى إلا في تسع ، فكن يجتمعن كل ليلة في بيت التي يأتيها فكان في بيت عائشة فجاءت زينب فمد يده إليها فقالت:

(هذه زينب فكف النبي ﷺ يده ، فتناولتا حتي استخبتا)

(السخب: الصخب والصياح) وأقيمت الصلاة فمر أبو بكر على ذلك فسمع أصواتهما فقال:

"أخرج يارسول الله إلى الصلاة وأحث في أفواههن التراب".

فخرج النبي ﷺ .

فقالت عائشة:

الآن يقضي النبي ﷺ صلاته فيجيء أبو بكر فيفعل بي ويفعل فلما قضى النبي ﷺ صلاته أتاها أبو بكر فقال لها قولا شديدا وقال: أتصنعين هذا ؟

ولا ريب أن الغيرة الزوجية غريزة أو عاطفة في الرجال والنساء وهي فيهن أشد ولا سيما إذا تعددن عند الرجل .

وكان أزواج النبي ﷺ كلهن يغرن من عائشة لعلمهن أنها أحب إليه وكانت هي أشدهن غيرة عليه حتى أنها كان تغار من خديجة رضي الله تعالى عنها وهي لم تعاشرها كما تقدم ذكره . . . فكانت على شدة ما ترى من عدله ومساواته بين نسائه تطيع ما يوسوس إليها الشيطان إذا

خرج من عندها في ليلتها أنه يذهب إلى غيرها حتى تبعته من حيث لا يشعر، فإذا هو قد ذهب إلى البقيع - مقبرة المدينة - يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء، فقام وأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات، قالت: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا).

فانصرفت فدخلت حجرتي، ولي نفس عال، ولحقني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ما هذا النفس يا عائشة».

فقالت: "بأبي وأمي أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تستنم، إن قمت فلبستهما، فأخذتني غيرة شديدة، ظننت أنك تأتي بعض صوئجاتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع".

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا عائشة أكنت تخافين أن يعييب الله عليك ورسوله؟» (راجع ما أخرجه مسلم ١٩٧٤/١٠٢ من حديث مخزومة بن المطلب).

وقالت السيدة عائشة .

"وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة فغرت عليه أن يكون أتى بعض نسائه فجاء فرأى ما أصنع فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أغررت؟

فقلت: «وهل مثلي لا يغار على مثلك؟».

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد جاءك شيطانك».

قلت: «أو معي شيطان؟».

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم».

فقلت: «ومع كل إنسان؟».

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم».

(أخرجه مسلم - ٧٠ / ٢٨١٥).

وقالت السيدة عائشة مرة تعيب صفية لتغيرها منها: "يا رسول الله حسبك من صفية قصرها".

فقال لها صلى الله عليه وسلم: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». رواه أبو داود - ٤٨٧٥.

أي أن كلماتها في قبحها لو ألقيت في البحر لأثرت فيه وخبث بها.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد شرب ذات مرة عسلا عند أم المؤمنين زينب كان أهدي إليها فأحبه، فأغرت عائشة به جميع نساءه فظاهرن على الكيد له حتى لا يعود إلى شرب العسل عندها بأن تواطأن على أن ينكرن رائحته مما شرب ففعلن.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الكراهة للرائحة الخبيثة فامتنع عن شرب ذلك العسل عندها وحرمه على نفسه، فلما علم بكيدهن وكذبهن عليه غضب عليهن كلهن. (أخرجه البخاري - ٥٢٦٧ - ومسلم - ١٤٧٤ - عن عائشة رضي الله تعالى عنها).

كما تواطأت عائشة مع حفصة في حادثة تحريم مارية القبطية وكان سببه غضب حفصة لاجتماعه بها في بيتها فاسترضاها بتحريمها عليه، وأمرها أن تكتم الخبر فأفشته لعائشة، وقد روى أيضا إنه أسر إليها حديثا آخر في مسألة الخلافة تظاهرتا - أي تعاونتا - عليه في ذلك وفيهما نزل قوله تعالى معاتباً له ومنذراً له:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ

وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثِيَابٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ (سورة التحريم ١ - ٥) .

وحاصل معنى الآيات:

أنه لا ينبغي لك أيها النبي أن تبالغ في مرضاة أزواجك فتبلغ منها أن تحرم لأجلهن ما أحل الله لك ، والله غفور رحيم ، غفر لك هذه فلا تعودن إلى مثلها وأن الله قد شرع لكم كفارة إيمانكم ومنها يمين تحريم المرأة أو الأمة - فهو كاليمين بالله تعالى - أي يكفره إطعام عشرة مساكين مرة واحدة أو كسوة كل منهم ثوبا ، أو عتق رقبة ، فمن لم يستطع إحدى هذه الثلاث وهو خير فيها فصيام ثلاثة أيام .

والله (العليم) بأفعالكم ونياتكم فيها " الحكيم " بما يشرعه لكم فيما يعرض لكم من مقتضى الطباع البشرية فيريكم به ويزكيكم .

ثم ذكر ذنب التي أفشت سره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي حفصة بما هو ظاهر المعنى في الجملة وأرشدنا هي والتي أفشت لها السر ، وهي عائشة إلى التوبة من ذنبهما وما صاغت أي مالت إليه قلوبهما ووافق أهواءهما من تلك الواقعة وأنذرهما إن أصرتا على التظاهر أي التعاون والتماثل على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الله هو مولاه الذي ينصره ويتولاه في كل أمر ، وكذلك جبريل وصالح المؤمنين ، والمراد بهم هنا أبوهما أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما والملائكة بعد ذلك كلهم يظاهرونه ويؤيدونه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم هددها بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا طلقهما هما وسائر أزواجه المتحزبات عليه فإن الله يبدله خيرا منهن في كل ما يتفاضل به النساء عنده من صفات الكمال ، ولو كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهيمه التمتع الجسدي لو صف الله البدل بصفات الحسن والجمال ، ولكنه لم يكن يحفل به ولو لم يكن نقصا في نفسه .

ثانيا: مطالبة أزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه بسعة النفقة:

كان من اليسير على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعيش مع أزواجه معيشة الترف والنعمة وأن يتمتعن ، بما أحبين من اللباس ، والطعام ، والحلي ، والزينة ، بما كان له من الحق في خمس الغنيمة ، ومنها على سبيل المثال غنائم بني النضير ، وبما كان له من الأرض في خيبر ، ولكن كانت غاية توسعته عليهن إعطاؤهن مئونة سنة كاملة من التمر والشعير الذي كان يتخذ منه الخبز في الغالب .

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتصدق ببعض ما أتاها من أو به كله إذا وجد من هو أحوج إليه من الفقراء ، بل ذبح مرة شاة فتصدق بها كلها فقالت له عائشة: هلا أبقيت لنا قطعه منها نفطر عليها ؟ فقال: «لو ذكرتني لفعلت» (الترمذي ٢٤٧٠).

وقد وقع لها بعده مثل ذلك بعينه فقالت لها مولاة لها كما قالت هي للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأجابتها بما أجابها به فهذه هي التربية المحمدية لأمهات المؤمنين ولو اتبع أهواءهن في الترف والزينة والأمة في طور التأسيس لماعد ذلك من فضائل الدين ولتناقض مع ذم القرآن للمترفين المسرفين .

ولقد بشر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بفتح بلاد الشام والفرس ، ومصر والاستيلاء على خزائن كسرى وقصر والسيادة فيها وفي غيرها من

الأرض ، وحذرهم من الإسراف فيما أباح الله لهم في كتابه الكريم من الزينة والطيبات .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تركت بعدى فتنة أضّر على الرجال من النساء» أخرجه البخاري ٥٠٩٦ ومسلم ٢٤٧٠/٩١ .

ومن هذه الفتنة: أنهن الداعيات إلى الإسراف في الفتنة والزينة ، فلما أراد أزواجه التوسعة عليهن في النفقة وأن يمتعن بمها أحبين من تنوع اللباس والطعام والحلي ، وهن قدوة نساء المسلمين جعل الله العليم الخبير سبحانه وتعالى له مخرجاً من ذلك بتخيرهن بين بقائهن على عصمته ، إيثار الحظ الآخرة وبين تمتيعه لهن بما يطالبن مع طلاقه لهن وتسريحه لهن بإحسان ، إيثار أمنهن لمتاع الحياة الدنيا وزينتها .

فلو أن زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلب عليهن التمتع بالنعمة والزينة ، والترف لاقتدى بهن جميع النساء من ذلك العهد ، ولما استطاع الرجال صرفهن عنه ، ولما قام للأمة قائمة ، فإن الإسراف في الترف والزينة يهلك الأمم الغنية فكيف تقوى بها الأمم الفقيرة ؟ أم كيف يمكن أن تؤسس أمة عزيزة مصلحة لفساد البشر وظلمهم بتنشئتها على التنافس في الشهوات والزينة ؟

ثالثاً: غضبه ﷺ على أزواجه وإيلاؤه منهن شهراً

تؤكد الروايات أنه في أول الإسلام كان قد اضطرب أمر النساء مع الرجال . إذ زادت جرأتهم عليهم ، بتأثير ما أعطاهن الإسلام من الحقوق ، وما أوصي بهن النبي ﷺ في التكريم حتى أنه قد اجتمع عند نسائه ﷺ مرة سبعون امرأة كل تشكو زوجها ، فلما انتهى نساؤه إلى هذا الحد ، مع العدل الكامل ، واللفظ الشامل ، غضب غضبة الخليم ، وحلف ألا يقربهن شهراً واعتزلهن تربية لهن ، ولا يتم ذلك إلا بوضع الحلم موضعه و الغضب في موضعه .

هذا وقد نستخلص من الصحيحين خبر غضبه وحلفه ﷺ على اعتزال أزواجه شهراً وتبيان ما كان عليه حال النساء في أول الإسلام ولنبدأ في هذا الخصوص بسياق مسلم:

فقد روى مسلم في صحيحه أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجا فخرجت معه ، فلما رجع فكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له ، فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت يا أمير المؤمنين من اللتان أظاهرتا على رسول الله ﷺ من أزواجه؟

فقال: تلك حفصة وعائشة

قال: فقلت له:

والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك".

قال: فلا تفعل ما ظننت أن عندي من علم ، فسلني عنه ، فإن كنت أعلمه أخبرتك .

قال: وقال عمر:

"والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم" .

قال: فبينما أنا في أمرا أتمره إذ قالت لي امرأتي: "لو صنعت كذا وكذا" فقلت لها: "ومالك أنت ولماهنا ؟ وما تكلفك في أمر أريده ؟" فقالت لي: "عجبا لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وأن ابتك لتراجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يظل يومه غضبان" .

قال عمر: فأخذ ردائي ثم أخرج من مكاني حتى أدخل على حفصة . فقلت لها: "يا بنية ، إنك لتراجعين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يظل يومه غضبان ؟"

فقالت حفصة: "والله إنا لنراجعه .

فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله

ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة ، لقرايتي منها .

فكلمتها فقالت لي أم سلمة:

عجبا لك يا بن الخطاب قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأزواجه ؟

قال عمر:

"فأخذتني أخذا كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها" .

لقد كانت هذه مقدمة مسلم لحديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فلنذكر تمة هذا الحديث من رواية البخاري عنه:

قال: ثم استقبل عمر الحديث يسوقه قال:

كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهم من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ فلينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غير، وإذا نزل فعل مثل ذلك وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار- إذا قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصخبت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني.

قالت: " ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وأن أحدهن لتهجره اليوم حتى الليل ". فأفرعني ذلك.

فقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن، ثم جمعت على ثيابي، فنزلت فدخلت على حفصة.

فقلت لها: أي حفصة أتغاضب إحداكن النبي ﷺ اليوم حتى الليل ؟

قالت: نعم.

فقلت: قد خبت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكي، لا تستكثري النبي ﷺ أي لا تطلب منه الكثير " ولا تراجعيه في شيء ولا تهجره وسليني ما بدا لك ..

قال عمر:

وكنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا فنزل صاحبي الأنصاري

يوم نوبته فرجع إلينا عشاء فضرب بأبي ضرب شديدا وقال: أقم ففزعت فخرجت إليه .

فقال: (قد حدث اليوم أمر عظيم) .

قلت: (ما هو أجراء الغسان ؟) .

قال: لا بل أعظم من ذلك وأهول ، طلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءه .

فقلت: " خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون ، فجمعت على ثيابي ، فصليت صلاة الفجر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل النبي مشربة له (غرفة) فاعتزل فيها ، ودخلت على حفصة فإذا هي تبكي وفقلت: ما يبكيك ؟ ألم أكن حذرتك هذا ؟ أطلقكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قالت: " لا أدري ها هو ذا معتزل في المشربة ، فخرجت فجنثت إلى المنبر ، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم فجلست معهم قليلا ثم غلبنى ما أجد فجنثت المشربة التي فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت للغلام له: استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم رجع .

فقال: قد ذكرت لك له فصمت ، فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ، ثم غلبنى ما أجد فجنثت فقلت للغلام: استأذن لعمر . فدخل ثم رجع فقال: قد ذكرت لك له فصمت .

قال عمر:

" فلما وليت منصرفا ، وإذا الغلام يدعوني ، فقال: قد أذن لك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجانبه متكئا على وسادة من آدم حشوها ليفا فسلمت عليه ثم قلت - وأنا قائم :-

" يا رسول الله أطلقت نساءك ؟"

فرفع إلى بصره فقال: لا .

فقلت: الله أكبر .

ثم قلت - وأنا قائم - أستأنس: يا رسول الله لو رأيته وكنا معشر قريش تغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة إذ قوم تغلبهم نساؤهم ، فتبسم النبي ﷺ .

ثم قلت:

" يا رسول الله لو رأيته ودخلت على حفصة فقلت لها: لا يغرنك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ - يريد عائشة - فتبسم النبي ﷺ تبسمة أخرى .

فجلست حين رأيته تبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت في بيته شيئا يرد البصر غير أهبة (جلود مدبوغة) .

ثم قلت: (يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك ، فإن فارسا والروم قد وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله) .

وفي رواية:

" فبكيت فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟

فقلت: وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك قيصر وكسرى في الأنهار والثمار

وأنت رسول الله صفوة خلقه فجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وكان متكئا .

فقال: «أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب؟ أن أولئك قدم عجلوا طيباتهم في الدنيا» .

فقلت: يا رسول الله استغفر لي .

فاعتزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعا وعشرين ليلة .

وكانني قد قال: ما أنا بداخل شهرا من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى .

قالت عائشة: ثم أنزل الله تعالى آية التخيير فبدأني أول امرأة من نساء فاخترته ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة .

وقد اتفقت الروايات على أن تخيير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزواجه بين تطليقهن وإبقائهن على عصمته على الوجه الذي يريده منهن ، وهو أن يكن قدوة صالحة للنساء في الدين كان بعد حادثة غضبه ، و هجره لهن شهرا ، ثم رضاه عنهن ، وقد صح أنه حدث في أثناء ذلك سبب آخر للتخيير ، وهو إخافهن بطلب التوسعة في النفقة والزينة .

رابعاً: تخييره صلى الله عليه وسلم لأزواجه بين الدنيا والآخرة

تؤكد كافة الروايات على أنه كان لهذا التخيير سببان:

أحدهما: غضبه وموجدته عليهن فيما كان من تظاهرن عليه - كما تقدم ذكره -

والآخر: هو مطالبتهن له بالتوسع في النفقة والزينة وهو ما دلت عليه الآية الأولى من آيتي التخيير، وقد ذكر بعض المفسرين بعض ما طلبن من ذلك .

ويروي لنا مسلم في صحيحه حديث عن جابر بن عبد الله قال: "دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال: فأذن لأبي بكر فدخل .

ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجها ساكتا .

قال: فقال أبو بكر: لأقولن شيئا أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يارسول الله لو رأيت بنت خارجة" زوجه أبي بكر" سألتني النفقة فقمتم إليها فوجأت عنقها" وجأت عنقها: أي لكزة بجميع يده إلهاء إظهاراً للإنكار لأجل "الإيلاء" .

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «هن حولي كما تري يسألنني النفقة» .

فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها .

كلاهما يقول: تسألن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ليس عنده؟

فقلن: والله لا نسأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئا أبدا ليس عنده .

ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين .

ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

قال: فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة أني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشير أبيك» .

قالت: وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآيتين .

قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسالك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت .

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، أن الله لم يعثني معنًا ولا متعتا لكن بعثني معلما ميسرا» .

ثم خيرهن كلهن فاخترن ما هو خير لهن: " اخترن الله ورسوله والدار الآخرة " . وهذا نص آبي التخيير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ٢٨ - ٢٩) .

ولا ريب أنه يتضح لنا جلجا بعد تناولنا للسيرة الذاتية لأمهات المؤمنين زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وظروف وأسباب زواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكل منهن وملاحح الحكمة في زواجه بكل منهن وتعدد وتنوع التجارب الإنسانية والاجتماعية التي مر بها صلوات الله وسلامه عليه معهن وسمو سلوكه

وتصرفه معهن حتى في أقسى هذه التجارب ليشكلوا معا أجل وأسمى قدوة للإنسانية كلها رجالا ونساء للتأسي بها في تكوين الأسر السوية الفاضلة المؤمنة باعتبار أن الأسرة هي الأمة الصغيرة، ومنها تعلم النوع الإنساني أفضل أخلاقه الاجتماعية، وهي في الوقت نفسه أجل أخلاقه وأنفعها فمن الأسرة تعلم الإنسان الرحمة والكرم، وليس في أخلاقه جميعا ما هو أجل منهما وأنفع له في مجتمعاته

فلا أمة حيث لا أسرة، بل لا آدمية، حيث لا أسرة ولأنه يجب ألا تترك مؤمنة فاضلة حتى بعد ترملها أو طلاقها تواجه الحياة وظروفها وقسوتها دون أن تكون في كنف مؤمن يرعاها ويكفلها ويحميها

وبالشروط التي أوجبها الإسلام في هذا الخصوص وأهمها الكفاية والعدل - وذلك حماية للأمة كلها وأسرها من الفحشاء والمنكر والبغي .

وصحيح أن الإسلام لم يمنع الاكتفاء بزوجة واحدة بل استحسنته، ولم يوجب تعدد الزوجات، بل أباحه فقط ومن الحكمة في ذلك أنه شرع لأزواج يعيشون على الأرض، ولم يشرع لأزواج تعيش في السماء ولا مناص في كل تشريع من النظر إلى جميع العوارض والتقدير لجميع الاحتمالات، وفي هذه الاحتمالات ولا ريب ما يجعل أباحه التعدد خيرا وأسلم من تحريمه بغير تفرقة بين ظروف المجتمع المختلفة، أو بين الظروف المختلفة التي يدفع إليها الأزواج .

ولقد أوضح لنا الرسول ﷺ بجلاء متى تكون إباحة التعدد خيرا وأسلم من تحريمه مما يؤكد معه أيضا، وكما اتضح من عرضنا فيما تقدم للسير الذاتية لأمهات المؤمنين أن الرسول ﷺ قد تزوج كلا من أمهات المؤمنين إما بوحي أو إلهام من الله عز وجل .

ولا ريب أيضا أن ملامح الحكمة في تعدد أزواجه صلوات الله وسلامه عليه أكثر مما أبيح لرجال أمته، أن يكن قدوة للنساء في الفضائل النسائية فقد كن جميعا رضي الله عنهن قدوة في التقوى والورع وحب وطاعه الله ورسوله، كما أنه هو القدوة العليا، والأسوة الحسنة للأمة كلها في معاملة النساء، وفي سائر الأمور، وملاك ذلك كله إثارة سعادة الآخرة على متاع الدنيا.

وقد يتضح ذلك جليا عندما أرادت أزواجه التوسعة عليهن في النفقة والزينة، وهن قدوة نساء المسلمين جعل الله عز وجل له مخرجا من ذلك بين بقاءهن على عصمته إثارة لحظ الآخرة وبين تمتيعه لهن بما يطالين مع طلاقه لهن وتسريحه لهن إحسان. فلو أن نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلب عليهن التمتع بالنعمة والترف لاقتدى بهن جميع النساء من ذلك العهد، ولما استطاع الرجال صرفهن عنه، وما قامت للأمة قائمة ثم كيف أن تؤسس أمة قوية، عزيزة، مصلحة لفساد البشر وظلمهم، بتنشئها على التنافس في الترف والزينة؟

نعم أباح الله الغنى الحميد سبحانه وتعالى الزينة والطيبات في حال السعة والثروة، ولكن بدون إسراف ولا بطر، وخاصة لمن هم قدوة للآخرين على مر الأجيال والعصور حكاما أو محكومين.

لقد أمر الله تعالى رسوله أن يبلغ أزواجه ما ذكر من التخيير على أنه من ربه لا من عند نفسه، ليكون مبدأ حرية الاختيار للزوجة المسلمة مبدأ من مبادئ الإسلام في الزواج على مر العصور والأجيال.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّخْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ

وَرَسُولُهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿سورة
الأحزاب ٢٨ - ٢٩﴾ .

وخلاصة معنى الآيتين:

قل لمن: إن كنتن تردن من حياتكن الزوجية حظوظ الدنيا، وشهواتها وزينتها فإنني لم أبعث لذلك، ولا تزوجتن لذلك، فتعالين أعطيكن المتعة المالية التي شرعها الله للمطلقات وأسرحكن إلى أهليكن سراحا جميلا لا إهانة فيه ولا إساءة، كما أمر الله كل من احتاج إلى تطليق امرأته لعدم استطاعته أن يعيش معها عيشه راضية مرضية لله تعالى ثم له ولها، وهو دليل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستطيع أن يقوم برسالة نبوته مع زوجات يرون في حياتهن معه نعيم الدنيا وزينتها، وإن كنتن تردن من هذه الزوجية مرضاة الله تعالى، ومرضاة رسوله بالقيام بأعباء الدين، وإصلاح أمور المؤمنين والمؤمنين وثواب الدار الآخرة تؤثرنة على نعمة الدنيا العاجلة، فإن الله قد أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما .

كما وصل الأمر بمواعظ وحكم عرفهن بها الله تعالى منزلتهن، وتفضيلهن على سائر النساء يجعلهن قدوة لمن في التقوى وحسن معاملة الأزواج بما أتاحه عز وجل لمن من معاشره مصلح البشر الأعظم محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخاتم النبيين وما يتلقينه عنه من آيات الله، والحكمة وما يشاهدنه من معاملته، وعلو أخلاقه من الأسوة الحسنة، وأن مقتضى ذلك أن يكون أجرن على العمل الصالح مضاعفا، وعقابهن على الأعمال الفاحشة مضاعفا، على قاعدة الغرم والغنم، وكون الذي يقتدي به في الخير له أجر ومثل أجور من يقتدون به فيه، والذي يقتدى في الشر عليه وزره ومثل أوزار الذين يقتدون به فيه . وفي هذا أخرج مسلم في صحيحه "١٠١٧/٧١".

عن جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال:

"جاء ناس من الأعراب عليهم الصوف، فرأى سوء حالهم وقد أصابتهم حاجة، فحث الناس على الصدقة، فأبطؤوا عنه، حتى رثي ذلك في وجهه قال: ثم إن رجلا من الأنصار جاء بصرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهن شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء».

ولو كانت سيرة أزواج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مرضية في متاع الدنيا وزينتها لفسدت سيرة سائر المؤمنات بل لكان ذلك من أسباب فساد اعتقاد كثير من الرجال.

من أجل هذا وغيره من الفضائل قال الله عز وجل مخاطبا لهن:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (سورة الأحزاب ٣٠ - ٣٤).

الفاحشة المبينة: وهي الفعل الظاهرة القبح ، كالكذب في مسألة العسل .

القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع وإذعان النفس .

التقوي: اتقاء مخالفة الله ورسوله وكل ما تسوء عاقبته .

الخضوع بالقول: هو القول الحسن البريء من الريبة الذي لا ينكر نزاهة قائله من يسمعه .

وقرن في بيوتكن: أي الزمن بيوتكن فلا تخرجن منها لغير حاجة .

التبرج: إظهار الزينة لجذب الأبصار ، وهو من منكرات الجاهلية القديمة .

الرجس: الدنس المعنوي وهو كل ما يمس الدين والشرف .

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس .. تعليل لهذه الأوامر والنواهي كلها فإن امتثالها يتنافى وتتم به الطهارة بأكمل معانيها .

وذكر الضمير (عنكم) ليشمل صاحب البيت صلوات الله وسلم عليه فإن شرف أزواجه له فإن علق بإحداهن رجس أصابه ألمه وعاره - أعلى كرامته ونزه ساحته كما يشمل بعمومه سائر أهل بيته بالإضافة إلى زوجاته . ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ .

أي احفظن ما يتلى في بيوتكن من آيات القرآن الكريم ومن المعارف السامية الرقية للعقول المزكية للنفوس ، الحاملة لها على معالي الأمور التي ينطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم سواء في الأحاديث القدسية أو الشريفة أو شرحه وتفسيره لا يعز على المؤمنين فهمه من آيات الله . . لتظل بيوت النبوة مقصدا للمؤمنين والمؤمنات ، ومنارة يستنير بها أهل العلم والفقه . . وهو ما

حدث فعلا بعد وفاة النبي ، إذ ظلت بيوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ما يجاوز خمسين عاما مقاصد ومنارات للمؤمنين والمؤمنات عامة ولأهل الفقه والعلم خاصة يستزيدون جميعا منها علما وفقها ...

فسبحان اللطيف الخبير جل وعلا الذي أنزل هذه الآيات ..

ولا جدال أن أي عاقل منصف سواء كان مسلما أو غير مسلم إذا ما أمعن النظر في الآيات ٢٨ إلى ٣٠ من سورة الاحزاب " أي من: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّخْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ * وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً * وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُفْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ نِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً * وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ .

وما سبق شرحه من أسباب نزولها وما تضمنته من تأديب المولى عز وجل لأزواج نبيه صلى الله عليه وسلم وتعليمهن ما يراد منهن ليوقن تماما وبما لا يدع أدنى مجال للشك من افتراء خصوم الإسلام وأعدائه الذين يدعون باطلا أن هم محمد من حياته كان التمتع باللذات والشهوات وأنه لذلك أكثر من الزوجات .

وقد ينبغي هنا إلى أن ننبه إلى وهم غالب بين الجهلاء وأنصاف المثقفين منهم أو المتعجلين عن سنن الأديان في تعدد الأزواج قبل الإسلام، إذ الغالب على أوهامهم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أباح تعدد الزوجات أو إنه أول دين أباحه بعد الموسوية والمسيحية، وليس هذا بصحيح .

ففي هذا المعنى يقول أستاذنا المفكر العظيم العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه:

وكما يبدو من مراجعة يسيرة لأحكام الزواج في الشرائع القديمة وفي شرائع أهل الكتاب، فلا حجر على تعدد الزوجات في شريعته قديمة سبقت قبل التوراة والإنجيل ولا حجر على تعدد الزوجات في التوراة أو في الإنجيل، بل هو مباح مأثور عن الأنبياء أنفسهم من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الميلاد، ولم يرد في الأناجيل نص واحد يحرم ما أباحه العهد القديم للأباء والأنبياء ولمن دونهم من الخاصة والعامة، وما ورد في الإنجيل يشير إلى الإباحة في جميع الحالات، والاستثناء في حالة واحدة وهي حالة الأسقف حين لا يطبق الرهبانية فيقنع بزوجة واحدة اكتفاء بأهون الشرور .

وقد استحسن القديس أوغسطين أن يتخذ الرجل سرية مع زوجته إذا عقلت هذه، وثبت عليها العقم، وحرم مثل ذلك على الزوجة إذا ثبت لها عقم زوجها؛ لأن الأسرة لا يكون لها سيدان "كتاب الزواج الأمثل" Bomo jugah.com.

واعترفت الكنيسة بأبناء شرعيين للعاهل شرطان من عدة زوجات، وقال وسترمارك العالم الثقة في تاريخ الزواج:

(إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر وكان

يتكرر كثيرا في الحالات التي تحصيلها الكنيسة والدولة ، وعرض جروتوس العالم القانوني المشهور لهذا الموضوع في بحث من بحوثه الفقهية فاستصوب شريعة الآباء العبرانيين والأنبياء في العهد القديم) .

فالإسلام لم يأت ببدعة فيما أباح من تعدد الزوجات ، وإنما الجديد الذي أتى به أنه أصلح ما أفسدته الفوضى من هذه الإباحة المطلقة من كل قيد ، وأنه حسبها حساب الضرورات التي لا يغفل عنها الشارع الحكيم ، فلم يحرم أمرا قد تدعو إليه الضرورة الحازية ، ويجوز أن تكون إباحته خيرا من تحريمه في بعض ظروف الأسرة أو بعض الظروف الاجتماعية العامة .

أما أن هذه الظروف قد تضطر أناسا إلى الزواج بأكثر من واحدة فالأمر فيها موكول إلى الذين يعانون تلك الضرورات من الرجال والنساء ، ومن تلك الضرورات أن يحتفظ الرجل بزوجه عقيما أو مريضة لا يريد فراقها ولا تريد فراقه ، ومنها أن يتكاثر عدد النساء في أوقات الحروب والفتن مع ما يشاهد من زيادة عدد النساء على الرجال في كثير من الأوقات ، فإذا رضيت المرأة في هذه الأحوال أن تتزوج من ذي حليلة فذلك أكرم لها من الرضا بعلاقه الخليفة التي لا حقوق لها على زوجها وأكرم لها كثيرا من الرضا بابتدال الفاقة أو بذل النفس في سوق الرذيلة) .

ويقول أستاذنا العقاد "المصدر السابق" :

"ومن حسنات التشريع في جميع الضرورات إنه يحسب حسابها ، ولا ينسى الحيلة لاتقاء ما ينقي من أضرارها ومن سوء التصرف فيها .. وكذلك صنع الإسلام بعد إباحة تعدد الزوجات للضرورة القصوى ، فإنه اشترط فيه العدل ونبه الرجال إلى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (سورة النساء ٣) .

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (سورة النساء ١٢٩) .

واشترط على الأزواج القدرة على تكاليف الزوجية والتسوية في السكن والرزق بينهم وبين الزوجات .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ (سورة الطلاق ٦) .

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (سورة البقرة ٢٣٣) .

ولا يسقط عن الزوج واجب الإحسان في المعاملة سواء اتصلت بينه وبين حليلته أصرة الزواج أو انتهت بينهما هذه الأصرة إلى الفراق بغير رجعة: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ﴾ (سورة البقرة ٢٢٩) .

بل لا يسقط عنه هذا الواجب حتى في حالة الطلاق بعد زواج لم تنعقد فيه الصلة بين الزوجين: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَرَاحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (سورة الأحزاب ٤٩) .

وهناك حيطة تعدل سلطان التشريع كله في - أمر تعدد الزوجات ، لأنها تكل القول الفصل فيه إلى اختيار المرأة فإن شاءت قبلته ، وإن لم تشأ رفضته فلا ، يجوز إكراهها عليه ، ولا يصح الزواج إذا بني على الإكراه .

وفي الحديث الشريف: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن» .

وفيه: «أن الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر وأذنها سكوتها» متفق عليه .

الزواج وملوك اليمين في عصر النبوة

وقد أبطل النبي ﷺ زواجا أكرهت فيه فتاة بكر على الزواج بأمر أبيها لمصلحة له في زواجها بابن أخيه .

وحدثت عائشة رضي الله تعالى عنها فيما رواه النسائي: " أن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبي زوجني من ابن أخيه يرفع له خسيسته وأنا كارهة فقالت: (احبسي حتى يأتي رسول الله ﷺ) .

فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته فأرسل إلى أبيها فدعاه فجعل الأمر إليها فقالت: (يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء) . رواه ابن ماجه .

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - فيما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه:

(أن جارية بكرا أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباه زوجها وهي كارهة فخيرها رسول الله ﷺ) رواه أحمد وأبو داود .

هذا وقد يندر أن يطرق خصوم الإسلام موضوع الزواج وتعدد الزوجات في الإسلام دون أن يعرجوا من ذلك إلى زواج النبي ﷺ، ويتذرعوا به للقدح في شخصه الكريم ، ومن ثم التشكيك في دعوته المباركة ودينه القويم .

ومن المتعارف عليه أن للإسلام خصوماً محترفين وخصوماً ينكرونه على قدر جهلهم به وسيرة نبيه صلوات الله وسلامه عليه - وغير خاف أن خصومه المحترفين هم جماعة المبشرين الذين اتخذوا القدح في الإسلام صناعة يتفرغون لها ويتعيشون منها ، وصناعتهم هذه لا تصطنع عملاً لها أهم وأخطر من عملها في تبشير المسلمين أو تبشير الوثنيين لكيلا يتحولوا من الوثنية إلى الإسلام .

ولا غنى لأصحاب هذه الخصومة ، وهذه الحرفة من اختلاق المآخذ وتصيد التهم التي تجري بها أرزاقهم ، وتتصل بها أعمالهم سواء عرفوا الحقيقة ، أو جهلوها وأعرضوا عن البحث فيها ، لأنهم يريدون الاتهام ولا يستريحون إلى معرفة تهدم كل ما عملوه ويتعيشون منه أو تصرفهم عن كل ما ألقوه وعقدوا النية عليه . .

أما خصوم الإسلام من غير فئة المبشرين ، فأغلبهم يخاصمونهم على السماع المغلوط ، ولا يعينهم أن يبحثوه أو يبحثوا ديناً من الأديان حتى الدين الذي ينتمون إليه وشبوا عليه من حجور أمهاتهم .

وما اتفق خصوم وأعداء الإسلام عن سوء نية على شيء قدر ما اتفقوا على خطة التبشير في موضوع الزواج على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذي يصاب منه الإسلام في هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وتمثيله لأتباعه في صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الإصلاح ، وأي صورة تغنيهم في هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الغارق في لذات الجسد العازف في معيشته البتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

ولقد تصوروا أنهم على صواب في الخطة التي تخيروها لإصابة الإسلام في مقتله من الطريق الوجيز .

ولكنهم في الحقيقة كانوا على أشد الخطأ في اختيارهم هذه الخطة بعينها إذ إن جلاء الحقيقة في هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه فإذا بمقتلهم المظنون يكتفي بها المسلم ، ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه الذي يفترى عليه من قالة السوء .

فلا حجة للمسلم على صدق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رسالته للرد بها

على خصوم الإسلام ودفع أباطيلهم أصدق من سيرته في زواجه ، وبما أوحى المولى عز وجل له أو ألهمه في اختيار زوجاته - كما تقدم شرحه - وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الإسلام في مطلع حياته إلى يوم وفاته ، فما الذي يفعله الرجل الشهواني إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد ﷺ بين قومه .

لم يكن عسيرا عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب ، وأفنن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية ، ولم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه فهل فعل محمد ﷺ ذلك بعد نجاحه ؟

هل فعل محمد ﷺ ذلك في مطلع حياته ؟

كلا: لم يفعله قط ، بل فعل نقيضه ، وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش في داره أن هذا النبي العظيم الذي أدبه ربه ، فأحسن تأديبه ووصفه بأنه على خلق عظيم والذي يفترى عليه الأئمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق في لذات حسه - قد كانت زوجته الأولى قد قاربت الأربعين ، وكان هو في عنفوان شبابه ، لا يجاوز الخامسة والعشرين وقد اختارته زوجا لها ؛ لأنه الصادق الأمين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة وفيما لقبه به عارفوه وعارفوا الصدق والأمانة فيه .

وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ثم وفي لها بعد موتها فلم يفكر في الزواج إلا عندما أوحى إليه بالزواج لحكمة أرادها الله عز وجل في ذلك ، وقد تعرضنا فيما تقدم لمحاولة شرح أو تبيان بعض ملاحظها .

وفي كل زيجاته صلوات الله وسلامه عليه لم يبن بواحدة من أمهات

المؤمنين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة - بل كما كانت إرادة المولى عز وجل في أن يكون أسوة لأُمته في الضنّ بالمؤمنات على المهانة وصلة الرحم وتوثيق أو أصر الصلة بين المؤمنين وبعضهم البعض بالمصاهرة... إلخ .

وغير خاف أن معظمهن كن أرامل وأيماء فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يتزوجهن رسول الله .

يقول أستاذنا العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه:

ولقد أقام هؤلاء الزوجات في بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات في بيوت الكثيرين من الرجال ؛ والمسلمين كانوا أو مشركين .

وعلى هذا الشرف الذي لا يدانيه عند المرأة المسلمة شرف الملكات أو الأميرات شقت عليهن شدة العيش في بيت لا يصبن فيه من الطعام والزينة فوق الكفاف والقناعة بأيسر اليسير؛ فاتفقن على مفاتحته في الأمر؛ واجتمعن يسألنه المزيد من التفقة وهي موفورة لديه لو شاء أن يزيد في حصته من الفيء؛ فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه إلا أن الرجل الحكم في الأنفس والأموال - سيد الجزيرة العربية - لم يستطع أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة؛ فأمهلهن شهرا وخيرهن بعده أن يفارقه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن أو يقبلن ما قبله لنفسه معهن من ذلك العيش الكفاف .

ولو أن هذا الخبر من أخبار بيت النبي كان من حوادث السيرة الحمديدية التي تخفى على المطلعين المتوسعين في الاطلاع؛ لكان للمبطلين بعض العذر فيما يفترونه على بني الإسلام من كذب وبهتان .

إلا أنه خبر يعلمه كل من اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل وليس بينها ما هو أشهر في كتب التفسير من أسباب نزول هذه

الآيات في سورة الأحزاب .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ٢٨ - ٢٩) .

وأقل المبشرين المحترفين ولعا بالتفتيش. عن خفايا السيرة النبوية خليف أن يطلع على تفاصيل هذا الحادث مجذافيره لأنه ورد في القرآن الكريم خاصا بالمسألة التي يتكالب المبشرون المحترفون على استقصاء أخبارها وإحصاء شواردها وهي مسألة الزواج وتعدد الزوجات .

وقد كان لهذا الحادث الفريد في مسيرة النبي صدى لم يبلغه حادث من الحوادث التي عنيت بها العشيرة الإسلامية حين كانت في بيئتها المحدودة تحيط بإيمانها إحاطة الأسرة بأبيها .

ويقول: وهجر النبي نساءه شهرا، يمهلهن أن يخترن بعد الروية بين البقاء على ما تيسر له ولهن من الرزق وبين الانصراف بمتعة الطلاق .

وبدا بالسيدة عائشة فقال: إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب إلا تعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك فسألته:

وما هو يا رسول الله ؟ فعرض عليها الخيرة مع سائر نسائه في أمرهن فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير قومي ؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وأجابت أمهات المسلمين بما أجابت به السيدة عائشة وانتهت هذه الأزمة المكربة بسلام وما استطاع صاحب الدار - وهو يومئذ أقدر رجل في

العالم المعمور - أن يحل أزمة داره بغير إحدى اثنتين: أن يجمع النية على فراق نسائه أو يقتنعن معه بما لديهن من رزق كفاف أعن مثل هذا الرجل يقال إنه حلس شهوات وأسير لذات .

أعن مثله يقال: إنه ابتغى من رسالته مأربا يبيغيه الدعاة غير الهداية والإصلاح ؟

فيم كان هذا الشفاء بأهوال الرسالة مأربا يبيغيه الدعاة غير الهداية والإصلاح ؟

فيم كان هذا الشفاء بأهوال الرسالة وأوجالها من ميعة الشباب إلى سن لا متعة فيها لمن صاحبه التوفيق والظفر أو لمن صاحبتة الخيبة والهزيمة ؟ من أراد الدعوة لغير الهداية والإصلاح فلماذا يريد لها وما الذي يغنمه من ورائها ؟

أتراه يريد لها مخاطر بأمته وحياته مستخفا بالهجرة من وطنه والعزلة بين أهله ؛ ليسوم نفسه بعد ذلك عيشة لا يقنع بها أقرب الناس منه وأعلامهم شرفا بالانتماء إليه؟

أمن أجل الحس ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيد الجزيرة العربية وأقدر رجالها على اصطفاء الحسن من الحرائر؟

وهل يتزوج بهن الشهوان الغارق في لذات الحس ليقنقدين به في احتواء الترف والزينة وخلوص الضمير للإيمان بالله وابتغاء الدار الآخرة؟

وما مآربه من كل ذلك الجهاد في بيته وبين قومه إن لم تكن رسالة يؤمن بها ، ولم تكن هذه الرسالة أحب إليه من النعمة والأمان؟

إن المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج في السيرة النبوية

مقتلا يصيب محمداً أو يصيب دعوته من ورائه ، ولكنهم قد كشفوا منها حجة لا حجة مثلها في الدلالة على صدق دعوته وإيمانه برسالته وإخلاصه لها في سره كإخلاصه لها في علانيته ولولا أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا في السكوت عن مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهدهم في التشهير بها واللغظ فيها .

وعلم الله ما كانت براءة محمد من فريتهم مرتبهة بجلاء الحقيقة من مسألة الزواج والزوجات فإن أحداً يفقه ما يفوه به لا يسوغ أن يقول أن عملاً كالذي قام به محمد ﷺ يضطلع به رجل غارق في لذات الحس مشغول بشهوات الجسد ، ولئن كان كذلك تم استطاع أن يتم دعوته في حياته ، وأن يبقيا تامة قومية لخلفائه ليكونن إذن آية الآيات على تكوين من الخلق لا يدانيه تكوين .

ولسنا نعتقد أن ديناً رفيعاً يسول للمتدين به أن يفترى الأباطيل على خلق الله ، وأقبح من ذلك في شرع الدين الرفيع أن يكون الافتراء على الناس سبيلاً إلى التبشير بكلمات الله ، ولكن المبشرين المحترفين لا يدينون بالله ولا بالناس ؛ وإنما يدينون بعبادة الجسد الذي ينكرونه ذلك الإنكار ويؤمنون به في أعمالهم وأقوالهم أحسن الإيمان .
